الوحدة مستقبل العرب

الدكتور عبد الستار قاسم

هل الوحدة مستقبل العرب، أم لا مستقبل للعرب بدون الوحدة؟ المقولتان صحيحتان. تعبر الأولى عن حتمية ستتحقق تدريجيا بفعل عوامل موضوعية فوق الوعي الفاعل، وتعبر الثانية عن رؤية إنسانية واعية تعمل قصدا على تحقيق الوحدة. دول أو دويلات أو إقطاعيات عربية نثرت الوطن العربي أشلاء أعجز من أن تجعل للإنسان العربي مستقبلا يعتز به أو يطمئن إليه سواء على المستوى الفردي أو الجماعي، وستبقى حاجة الإنسان للاندفاع إلى الأمام نحو الشعور بالاحترام الذاتي أقوى من إرادة الاستعمار. إرادة الاستعمار تاريخية نفذت بقوة السلاح، وحاجة الاحترام الذاتي خلقية تعجز قوى السلاح عن إلغائها. هذا ناهيك عن أن القوى المؤمنة بالوحدة من قومية وإسلامية تواصل تقدمها على الصعيد الشعبي وستجد إرادة الأمة في النهاية طريقها نحو التجسيد.

عجزت دول التجزئة عن السير بالوطن والمواطن نحو التقدم والعطاء وأبقته ضمن أطر اجتماعية واقتصادية وثقافية تقليدية متخلفة لا يمكن أن تضعه في ركب الحضارة العالمية وتجعل منه أحد صناعها، ولن يكون بإمكانها أن تفعل ذلك مهما حاولت بسبب أفقها الضيق وإمكاناتها المحدودة. لقد صُممت الدول العربية بطريقة تضمن استمرار ضعف العرب وبقائهم مطية للهزائم. قطع الاستعمار أوصال الكتل العربية الكبيرة مثل الشام ووادي النيل والمغرب العربي وشبه الجزيرة العربية وحرص حيثما أمكن على إقامة حكومات ذات أبعاد مشيخية قبلية تدافع بحكم تركيبتها عن التخلف السياسي. وبث الكراهية والعداء بين الحكام حتى يضمن أن التعاون بين القبليين لن يكون ممكنا. وتعلمت الأنظمة المصنوعة أن استمرارها في الحكم يتطلب المحافظة على التخلف من خلال ولاءات بدائية تقوم على المصالح المادية والوجهية وعلى ترسيخ ثقافات محلية ضحلة كبديل للثقافة العربية الإسلامية. وللتأكيد على النجاح عملت على تطوير أجهزة أمنية تثير الرعب في قلوب المواطنين وتشل تفكيرهم وتباعد بين ما يؤمنون به من مُثُل وبين ما يفعلون. بمعنى أن مختلف السياسات الخارجية والداخلية استهدفت الهوية العربية الإسلامية أملا في انكماش العربي إلى ليبي وعُماني وجزائري ويمني ولبناني.

حقق الاستعمار والأنظمة العربية التي تدعمه بعض الأهداف جزئيا. ألبوا شعوبا عربية ضد أخرى، وأشعلوا حروبا بين الدول، وصنعوا نعرات إقليمية وقومية وطائفية، وأذلوا الأمة بمختلف الوسائل حتى بات بعض العرب كافرين بعروبتهم وتاريخ أمتهم وأمجاد أسلافهم. وشنوا حملة على الدين الإسلامي لتحويله إلى ملجأ الفارين من زخم الحياة وهول الأحداث، وإلى مجرد فتاوى متناثرة حول جزئيات حياة إسلامية لا نعيشها. وصنعوا عقدة النساء ليبقى المسلمون منشغلين بزواج المرأة وشعر المرأة ورياضة المرأة ولباس المرأة ومطبخها وزياراتها وطلاقها وخلعها وتبسمها وضرائرها وطاعتها وزينتها وولايتها ومحارمها.

هذا وضع شاذ يخرج عن السياق التاريخي للأمة وعن منطق التقدم الإنساني. تتعرض الأمم لإخفاقات وهزائم وإذلال ومن الممكن أن تستكين وتستسلم، ولكن إلى حين. الأمة العربية من الأمم الحية ذات التاريخ المجيد حتى لو تخللته العيوب والنواقص، وهي أمة تملك مقومات الانطلاق ومضاهاة الأمم المتقدمة والتفوق عليها. وإذا كان هناك من يشكك في هذا فما له إلا أن ينظر إلى داخله ليتفحص رضاه عن الوضع القائم. زفرات العربي وكراهيته أحيانا للأمة التي ينتمي إليها ليست إلا معبّرا هاما عن رغبته في التغيير وقلب الأوضاع. وهكذا هي السيرة العامة للأمم. تبدأ الأمور بعدم رضى يولد وعيا متصاعدا مع الأيام. يكتب الكتاب ويدون المفكرون ويحدث المتحدثون وتأخذ الأفكار ببناء نسيج من التطلعات والطموحات يفرز أدواته مع الأيام. هذا ما نشهده هذه الأيام في الفضائيات وما نقرأه في الكتب وما نسمعه على المنابر. وسواء شئنا أم أبينا يفرض التاريخ نفسه من أجل أن يستقيم منطقه وسنشهد أدوات تطوير مختلفة تفرض نفسها على قوى التغيير. سيقود ذلك حتما إلى صراع بين المستفيدين من الوضع القائم وبين الطامحين إلى التغيير، لكن دعونا نأمل ألا يكون دمويا.

وللعربي أن يسأل نفسه عن سبب سطوة أجهزة المخابرات على المواطن العربي. لولا الخوف من التغيير وقواه لما كان ذلك. وفي هذا مؤشر منطقي على ضعف حكومات التجزئة وحالة الرعب التي تعيشها. إنها أجبن من أن تتحمل مقالا في جريدة أو محاضرة في جامعة أو خطبة على منبر، وهذا بالضبط ما يدل على أن انهيارها بات وشيكا.

يتبدل العالم ويتغير بفعل عوامل متعددة على رأسها القفزات الهائلة في عالم المواصلات والاتصالات والهيمنة الكبيرة التي باتت تفرضها قوى الرأسمالية الاحتكارية. العالم يتقلص ونفوذ الدول القومية آخذ بالانحسار.

تدرك دول عظمى هذه الحقيقة بخاصة في أوروبا وعاجلت إلى تكييف أوضاعها قبل أن تجتاحها قوى التطور التاريخي. وجدت ألمانيا نفسها عرضة لتأثيرات قوية إن لم تكن جزءا من تكتل يتجاوزها ويتجاوز مختلف الدول الأوروبية. فما بالنا بدول صغيرة الحجم لم ترتق بعد إلى الدولة القومية؟ دول عربية كثيرة ستجد نفسها كالنمل في طريق سليمان إن هي استمرت فيما هي عليه، وستتجاوزها الأحداث وسيتحول الحاكم العربي إلى مجرد مختار في قرية نائية توهم نفسها أن العالم من حولها يتلاشى في المحيط. يفرض الحدث نفسه ولن يكون أمام العرب إلا أن يكونوا عجلة تسعى نحو التميز في زخم بحر تتلاطم فيه أحداث متشعبة متسارعة.

فضلا عن ذلك، هناك العمل الواعي الذي يقوم به الإنسان متعمدا من أجل التغيير. هناك نهوض إسلامي وقومي يتصاعد مع الأيام وتتطور قدرته على الحشد والتأطير. يضيق الناس ذرعا بالهزائم والتخلف والذل، وبعضهم يرى ضرورة العمل الجاد على تغيير الأوضاع. لكن مشوار هؤلاء ما زال طويلا بعض الشيء خاصة أنه لم تتبلور لديهم الجرأة الكافية لمواجهة الظلم والطغيان. صحيح أن تعبيرات الاستياء متعددة وكثيرة لكنها يندر أن تتجاوز الخطوط الحمراء التي تسمح بها المخابرات. ما زال أثر الرعب الصادر عن أجهزة المخابرات أقوى في فعله من فعل الرغبة في التغيير على النفس الإنسانية العربية على الرغم من وجود نفر قليل جدا في الوطن العربي تجاوزوا هذا الوضع. لكن مع زيادة الوعي ورسوخ الإيمان بالله وبضرورة وحدة الأمة سينشأ جو نفسي مختلف.

حتى يتم اختصار الطريق أرى أنه من المهم تطوير إطار يجمع مختلف القوى الراغبة بالتغيير والدفع باتجاهه. إذ من الواضح أن التجزئة تغزو الداعين إلى الوحدة ربما قسرا، ولا يمكن لقوى منفصلة أن تحرز ما يمكن أن تحرزه في حال عملها معا. لا مفر من تخطي دولة التجزئة والقفز عن الحدود وتجاهل كل المعوقات السياسية المفروضة إن شئنا أن نحول الشعار إلى عجلة تدور على أرض الواقع ونقيم تجمعا عربيا يمتد على طول الوطن العربي الكبير. وفي محاولة كهذه لا بد أن نأخذ بالاعتبار ما يلي:

أولا: لا مستقبل للعرب بدون الوحدة حتى لو كانت مصر وهي الدولة العربية الأكبر. التضامن العربي والعمل العربي المشترك عبارة عن شعارين مفرغين لا يقصد منهما سوى الهروب مما هو ضروري وحتمي. وقد ترك قادة العرب الشعارين بدون تعريف حتى لا يكون على سلطان أحدهم سلطانا يخالف ما هو مناط به من مهمات.

ثانيا: قوة الأمة من قوة الإنسان كما أن قوة الإنسان من قوة أمته. تنمو قوة الإنسان وتتطور في أجواء الحرية. الإنسان المقموع ضعيف وهو عبارة عن عاهة وعالة لا يتقن سوى الهزائم. ولهذا من المفروض أن يكون هناك إصرار على الانطلاق بالإنسان وتحريره من قوى الهيمنة والاستبداد وإلغاء الذات. لا إبداع بدون حرية، ولا يقوى على التحرر والبناء من أنهكت العبودية أوصاله.

ثالثا: تضم الأرض العربية بين جنباتها عربا وغير عرب، مسلمين وغير مسلمين؛ إنهم جميعا شركاء متساوون. الوحدة العربية لا تعني الانحياز لصالح العرب على حساب غير العرب على الأرض العربية؛ ولا يوجد على الأرض العربية أقليات وإنما فئات قد تكون قليلة وقد تكون كثيرة، ولن يعلمنا أحد كيف تحترم كل فئة حقوق الفئات الأخرى.

رابعا: لا يُستبعد أحد من فكرة التجمع بغض النظر عن مشربه الفكري أو العقائدي إلا إذا كان معترفا بالكيان الصهيوني أو مطبعا معه أو متعاونا مع جهات خارجية تتآمر على المصلحة العربية مثل الولايات المتحدة الأمريكية. ولا تتناقض فكرة التجمع مع انتماء الشخص إلى حزب أو تنظيم مثل حزب البعث أو الإخوان المسلمين. من المفروض أننا تعلمنا عدم إهدار طاقاتنا في المنافسات الداخلية وأن نؤجل اختلافاتنا إلى موعد لاحق.

خامسا: الوحدة العربية لا تغلق الباب أمام دول الجوار أو الدول الإسلامية وتبقي الباب مفتوحا أمام التعاون معها أو التحالف أو الاتحاد.

وتبقى مشكلتنا الأساسية متمثلة بغياب الحرية. لو توفرت الحريات واستطاع الشعب أن يختار ممثليه لاختلف حالنا جذريا عما هو عليه الآن. ولهذا من المفروض أننا على قناعة بأن من يحرم شعبه الحرية لا بد أن يكون متآمرا إما عمدا أو جهلا. وهذا هو بالضبط شأن من يصر على استمرار التجزئة العربية؛ إنه يخدم الاستعمار الذي رأى مصلحته في أمة عربية ضعيفة خاوية.